

الشَّجَرَةُ الصَّغيرَةُ

تأليف: مصطفى نصر ■ رسوم: صلاح بيصار




قطر الندى

الشَّجَرَةُ الصَّغيرَةُ

سِرْتُ بِجوارِ سُورِ «نادى سْبورتنج» مِنْ ناحِيَةِ التِّرام، تَوقَّفْتُ بِجوارِ شَجرَةٍ صَغيرَةٍ جدًّا، وعَمُودٍ مِن الخَشَبِ مُعلَّق بهِ لافِتَة:

«غُرِستْ هذِهِ الشَّجرَةُ فى المَكانِ الذى قُتِلَ فِيهِ ابْنُنا الوحِيدُ، تَخْلِيدًا لِذِكْراهُ».

كُنْتُ أعْلَمُ أنَّ ثلاثَةَ أشْقِياء قَدْ واجهُوا صَبيًّا عائِدًا إلى بيْتِهِ مساءً، وحاوَلُوا سَرِقَةَ كُلِّ ما مَعَهُ مِنْ نقُودٍ، لكِنَّهُ قاوَمَهُمْ؛ فقتَلُوهُ فى هَذا المَكانِ.

شَعَرْتُ بِالأسَى وبرَغْبَةٍ فى البُكاءِ، فالوالِدان لَمْ يَجِدا سِوَى هذِهِ الوَسِيلَةِ للتَّعْبيرِ عَنْ حُزْنِهما. هَلْ هدأَ الوالِدانِ وارْتاحا بَعْدَ غَرْسِ هذِهِ الشَّجرَةِ؟

كُنْتُ أمُرُّ فى طَريقِى إلى مَدْرَستى كُلَّ يَوْمٍ مرَّتَيْنِ مِنْ هذا المَكانِ، وأُتابعُ الشَّجرَةَ الصَّغِيرَةَ، وأقْرأُ اللافِتَةَ مرَّةً أُخْرَى، وقد أخْبرَنى صَاحِبُ دُكّانٍ قَريبٍ مِن المَكانِ؛ عِنْدَما وجَدنى مُهْتمًّا بالشَّجرَةِ:

– إنَّ والِدَى الصَّبِىِّ الذى قُتِلَ هُنا، يأْتيانِ كُلَّ صَباحٍ لِرىِّ الشَّجرَةِ والعِنايَةِ

بِها.

للأسفِ لَمْ أُشاهِدْهُما، رُبَّما يأْتِيان فى وَقتٍ أكُونُ فِيهِ فى مدْرستِى.

لكِنْ بَعْدَ أكْثر مِنْ عامٍ لاحَظْتُ أنَّ الشَّجرَةَ بدأتْ تذْبلُ، وأوْراقُها اليابِسَةُ التى تقَعُ مِنْها تُحِيطُ بالمكانِ. سألْتُ صاحِبَ الدُّكَّانِ القَرِيبِ مِن الشَّجَرَةِ:

– لماذا ذبلَتْ هَذه الشجَرَةُ هكذا؟

خرَجَ الرجلُ من دُكّانه، ونظرَ إلى الشجَرَة قائلاً:

– الرجلُ والمرْأةُ كانا يأتِيانِ كُلَّ يوْمٍ لرِيِّها والعِنايَةِ بِها، لكنَّهُمَا لَمْ يأْتِيا مُنْذُ أكْثرَ مِنْ أُسْبُوعَيْنِ.

قُلْتُ: هلْ تعْرِفُ مكان بَيْتِهِما؟

أشارَ الرجُلُ إلى مكانِ البَيْتِ مِنْ خارِجِ دُكّانِه، وذَهبْتُ إليْهِما. وَقفْتُ أمامَ الشقَّةِ التى وَصفَها لى صاحِبُ الدكَّان، ظَلَلْتُ أدُقُّ جرَسَ الباب حتَّى ظَنَنْتُ أنَّ الشقَّةَ خاليَةٌ، وسِرْتُ بالفِعْلِ فى طَرِيقى إلى بابِ البَيْتِ لأخْرُجَ،



ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ البابِ يُفْتَحُ؛ وامْرأةٌ عَجُوزٌ تَقِفُ أمامَ البابِ.
عُدْتُ مُسْرِعًا، قُلْتُ: جِئْتُ مِنْ أَجْلِ الشجَرَةِ الصَّغِيرَةِ؟
صاحَت المَرْأةُ فى لَهْفَةٍ وخَوْفٍ: هَلْ حَدَثَ لَها مَكْرُوهٌ؟



– أَخافُ أنْ تَمُوتَ مِنْ
عَدَمِ الاهْتِمامِ بِها.
دَخَلْتُ الشَّقَّةَ
والمَرْأةُ
تُحَدِّثُنِى
عَمَّا
حَدَثَ لَها:
– زَوْجِى
مَرِضَ مَرَضًا
شَدِيدًا حُزْنًا عَلى فَقْدِ
ابْنِنَا الوَحِيدِ، فاضْطُرِرْتُ أنْ

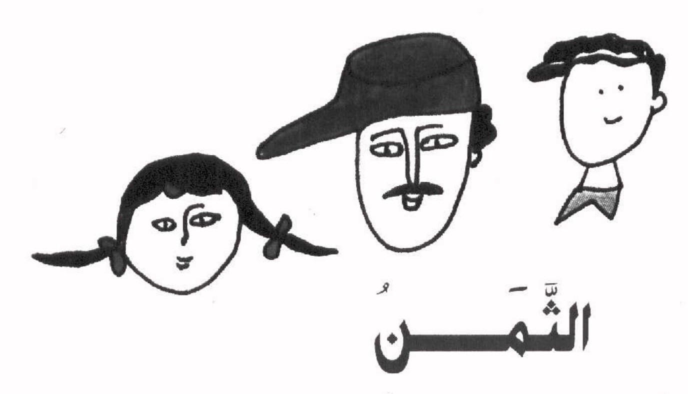
أمْكُث بِجوارِهِ لرعايتِهِ.

كان زَوْجُها نائِمًا فوقَ سَريرِهِ يُتابِعُنا فى صَمْتٍ وضَعْفٍ، صافَحْتُهُ ووعَدْتُ بأَنْ أقومَ برِعايةِ الشجَرَةِ الصغيرةِ بدلاً عنْهما؛ وأنْ يَسْمَحا لى بزِيارتِهما، والعِنايةِ بِهما، وكأَنَّنى ابْنُهُما الوَحيدُ الذِى فَقَداهُ.

كنتُ أَذْهَبُ كُل يَوْم لرِىِّ الشجَرَةِ الصغِيرة، وتنْظيفِ المِنْطقةِ حوْلَها. وأقَمْتُ العَمُودَ الذى يَحْمِلُ اللافتَةَ، والذِى كادَ يَقعُ على الأَرْضِ.

بعدَ شُهُور قَلِيلَة؛ قَضيْتُها فى العِنايَةِ بالشجَرَةِ وبالوالدَيْنِ المَكْلُومَيْنِ؛ سِرْتُ بَيْنَهُما مِنْ بيْتِهِما إلى مكانِ الشجَرَةِ. كانَ الرجلُ يَسِيرُ بمُساعدَةِ عَصاهُ، ويدُهُ الأُخْرَى فوقَ كَتفى، بَيْنما المَرْأَةُ تَسِيرُ بِجوارِنا مُبْتَسِمَةً. عنْدما رأَيا الشجَرَةَ وقدْ أيْنَعتْ وكَبرتْ قَلِيلاً؛ شَعَرا بالفَرَحِ وأخَذا يَدْعُوانِ لِى.





الثَّمَـــنُ

يَدُورُ عَتْرِيس بالبلْدوزر يرْفعُ التُّرابَ بحافَّتِهِ، يَسِيرُ بِهِ، يرْمِيهِ بعِيدًا عنْ مكانِ العَمَلِ، وعليْه أنْ يعُود ثانيةً ليحْمِل أكْوامًا أخْرى، لكنَّهُ لا يعُودُ. يخْرُجُ منْ كابينَة القِيادةِ ويخْتارُ مكانًا هادِئًا، وتحْتَ ظلِّ شجرةٍ يتمدَّدُ، يُغْلِقُ عيْنَيْهِ اتِّقاءً للضَّوْءِ الباهِرِ الذِى يُقابلُهُ وينامُ. أرضُ المصْنَع الذِى يعْملُ بهِ كبيرةٌ، فى حاجةٍ لبناءِ مخازِنَ فى أرْضٍ مليئَةٍ بالبُوصِ وأكْوامِ التُّرابِ المُتراكِمَةِ مِنْ سَنواتٍ طِوالٍ.

لكِنَّ عتْرِيس يبْتعِدُ عنْ هذا كُلِّهِ. يُردِّدُ لِنفْسِه: فى الغدِ سوْف أحْمِلُ باقِى التُّرابِ.

لقَدْ سَهِرَ طويلاً بالأمْسِ مع أصْدِقائِهِ، لِذلِكَ لا يسْتطِيعُ أن يُواصِلُ العمل والبُلْدوزر يحْتاجُ إلى يَقظَةٍ وقُوَّةِ أعْصابٍ، ثم ردَّدَ لنفْسِه مُرْتاحًا:

– فى الشركة بُلْدوزران آخرانِ يعْملانِ بدلاً منِّى، فلأنَمْ وأرْتح الآنَ.

هكذا يمرُّ وقْتُهُ في العمَل، ويعُودُ وقدْ ارْتاحَ تماماً، ونامَ السَّاعاتِ الطوالَ مُسْتعدًّا لسهْرَةٍ جدِيدَةٍ مع أصْدِقائهِ. لكنَّه وجدَ زوْجتهُ تقِفُ حزينَةً، يعْرفُ هوَ ما تُعانِيهِ دُون أنْ يَسْألَها: ماذا حدَث؟

– الوَلدُ سَمِير مَرِيضٌ.

كانَ سمير مُلْقَى فوْقَ

السَّرير، وجْهُهُ أحْمَرُ، وعيْناهُ مُغْرَوْرقتانِ بالدّمُوعِ:

– مُنْذُ أنْ خرَجْتِ وهو على هذهِ الحالِ.

تحَسَّس جبْهَةَ الطِّفْلِ، وجدَ الحرارةَ مُرْتفِعةً: وماذا تنْتظرين؟ هيّا بنا إلى الطَّبيبِ.

لفَّتْهُ المرْأةُ بعِنايةٍ خشْيةَ أنْ يُصيبهُ البرْدُ في الخارجِ، وأقلَّتْهُما سيَّارةُ أجْرةٍ إلى طبيبٍ، فحصهُ بعِنايةٍ، وكتبَ لهُ تذْكرةَ علاجٍ مُحذِّرًا منْ إهْمالِه، صرفَ عتْريس تذْكرةَ الطبيبِ، دفعَ مبْلغاً كبيراً من المالِ، وحملَ علبَ الدَّواءِ.

نامَ مُتأخِّرًا هذه الليْلةَ أيْضاً وعنْدما ذهبَ إلى العملِ في اليوْمِ التّالي كانَ حزيناً ومهْموماً، قالَ لرئيسِهِ عمّا حدثَ ورجاهُ أنْ يُعْفيَهُ من العملِ على البُلْدوزر لأنَّ حالتَهُ لنْ تسْمحَ لهُ بهذا، واسْتجابَ الرَّجلُ مُضْطرًّا.

نامَ عتْريس بمكانِهِ، تحْتَ شجرتِهِ الوارفةِ الظَّليلةِ، وظلَّ هكذا إلى قُرْبِ موْعدِ الانْصرافِ.

اسْتعادَ الولدُ سمير عافيتَهُ وبدأ يسيرُ في الشَّقَّةِ كما كانَ، وعادَ عتْريس إلى أصْدقائِهِ يسْهرُ لوقْتٍ مُتأخِّرٍ من الليلِ دُونَ فائدةٍ، ويعُودُ إلى عملِهِ مُتْعبًا ينْقلُ نقْلةً من التُّرابِ أو نقْلتيْنِ بالبُلْدوزر، ويهْربُ بهِ

بَعِيدًا لِينَامَ.

وفُوجِئَ بِمَرَض البِنْتِ فاطِمَة، أَقْلَقَهُ مَرَضُها، فلقد شَحِبَ وجْهُها وخَفَّ وزْنُها فى ساعاتٍ قَلِيلَةٍ، حملَهَا مع زَوْجَته وذَهَبا إلى الطَّبيب، وتكرَّر ما حدَث مع سَمير، تذكرة علاجٍ بمبلغٍ كَبيرٍ، جعَلَتْهُ غيْرَ قادِرٍ على الإنْفاق على الأُسْرة لباقى الشهْر.

وتَكرَّرَ نَوْمُ عتْريس تَحْتَ ظِلِّ الشَّجرَة، وهُرُوبُهُ مِنْ حمْل أكْوام التُّراب والرمْل، وإصْلاح الأرْض لإعْدادِها للْبناء، لكنَّ الذى أدْهَشَهُ، هو تكْرارُ مرَض أطْفالِهِ بطَرِيقَةٍ لَمْ تَحْدُثْ له مِنْ قبْلُ.



زارَهُ والدُهُ فى بيْته، وكانَ مُتَدَيِّنًا، جاءَ بعد أنْ علِمَ أنَّ الولَدَ سَمير قدْ عاوَدَهُ المَرَضُ ثانيَةً، جلَسَ بجوارِهِ ولَدُهُ عتْريس بعِيدًا عن العائِلَةِ. قالَ لَهُ: لقَدْ تكَرَّرَ مرَضُ أطْفالِكَ بطَرِيقَةٍ غيْرِ عاديَّة ياعتْريس.

– أمْرُ اللَّه ياأبى.

– كُلُّهُ بإذْنِ اللَّهِ لاشَكَّ، لكنَّ لكُلِّ شَىْء سَبَبًا.

وشَرَدَ الرجُلُ بعْضَ الوَقْت، ثم سألَ

ابْنَهُ: ماذا تَفْعَلُ فى عَمَلِكَ؟ قُلْ لى.

حَكَى عَتْريس لأبيه عمَّا يحْدُث: إنَّنى لا أتْعَبُ فى العمَلِ، لا أحدَ يسْأل. أبْتَعِدُ بالبُلْدوزر الذى أعْملُ عليْهِ وأنام. أو أزورُ بَعْضَ الزُّملاءِ فى مكانٍ بعيدٍ عنْ عملى. وأقْضِى الوقْتَ معَهُمْ حتَّى موْعِدِ الانْصِراف.

زامَ الرجُلُ ثمَّ قال:

هُنا المُشْكِلَةُ.

– ماذا تقْصِدُ ياأبى؟

– إنَّكَ تأْخُذُ مالاً لا تتْعَبُ فيه. لِهَذا يذْهَبُ دُونَ شَىْء.

–لكِنَّنى..

–أخْلِصْ لِعَمَلِكَ، يُكْرِمْكَ اللَّهُ فى ذُرِّيَّتِكَ.

فَكَّرَ عتْريس



طويلاً فى حديثِ والدِه، إنَّهُ لا يَعْملُ سِوى ساعةٍ أو ساعتيْن على الأكْثرِ ويقْبضُ راتبهُ بالكاملِ. أجلْ، هذِهِ هى المُشْكِلةُ، لكِنَّ أطْفالى الأبْرياء ما ذنْبُهُمْ فيما يحْدُثُ.

تأخَّرَ فى النَّوْم هذه الليلة أيْضًا مِنْ شِدَّة التَّفْكير.

فى اليَوْم التَّالى، ركِبَ البلْدوزر، مُتحمِّساً، حملَ أكْوام التُّراب وعادَ مُسْرعًا، واجهتْهُ شجرتُهُ الظليلةُ لكنَّهُ لم يجلس عنْدها، حملَ أكْوامًا أُخْرى وأُخْرى، ووقفَ أمام الرِّجالِ العامِلينَ فى الأرْض وسألهُمْ: أىّ خِدْمةٍ. إنَّنى تحْت أمْرِكم.

ظلَّ عتْريس يعْملُ طوالَ اليَوْم، كانَ سعيدًا، وجسدُهُ صَحيحًا، لم يُحِسُّ برغْبةٍ فى النَّوْم أو فى التكاسُل، وظلَّ هكذا لِعدَّة أيَّام، أصْبحتْ هذه طريقتَهُ فى العمَل، يعْرِضُ – هُوَ – خدَماتِهِ على العامِلين.

ولاحظَ أنَّ الأمْراضَ ابْتعدتْ عن أطْفالِه، لمْ يعُدْ يُنْفِق مِلِّيمًا واحِدًا على زُجاجةِ دواءٍ.

لمْ يحْكِ لزَوْجتِهِ عمَّا حدث بيْنهُ وبين والدِه، وربَّما أحسَّت المرْأةُ بأنَّ أطْفالها أصْبحُوا أصِحَّاء هذه الأيَّام، لكنَّها لم تُحِسّ بالتَّغْيير الذى حدث لزوْجِها.



الحَفْــــلُ

أعْلَنَ عَبْدُ اللَّه فى كُلِّ مَكانٍ أنَّهُ سَيُقِيمُ حَفْلاً لسَماعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ والإنْشادِ الدينىِّ فى بيْتِهِ مَساءَ الخَمِيس القادِم، ودَعا الأقارِبَ والأصْدِقاءَ لِذلك، وعلَّقَ كَهْرُبائىُّ الحَىِّ اللمْباتِ الكَبيرةَ فى كُل مكانٍ، وَوَضعَ كَنَبَةً كَبيرَةً لجُلُوسِ المُقْرِئِ والمُنْشِدِ، وأمامهما مِيكْروفُون.

وَقفَتْ زَوْجَةُ عَبْدِ اللَّه فى المَطْبَخِ، مع صَديقاتِها وقَرِيباتِها اللائى حَضَرْنَ لمُساعَدَتِها فى إعْدادِ الطَّعامِ الذِى سَيتَناوَلُهُ المَدْعُوُّون، فقد اشْتَرى عَبْدُ الله كَمِّيَّاتٍ كَبيرَةً من اللَّحْمِ، وكَمِّيَّاتٍ كَبيرَةً من الخُضَار والأرْزِ والخُبْزِ لزُوم عمل الفتَّة.

وَبيْنَما كانَ الشَيخُ يَقْرأُ القُرْآنَ الكَريم، كان عَبْدُ اللَّه يَنْحَنِى بِجوارِ أحدِ

المدْعُوِّين يدْعُوهُ لِتَناوُلِ الطَعام، فَيَعْتَذِرُ المَدْعُوُّ – أوَّلَ الأمْرِ – مُتَحَجِّجًا بأنَّهُ شَبْعان، لكِنَّ عَبْدَ اللَّه يُلِحُّ ويُلِحُّ حَتَّى يُوافِقَ المَدْعُوُّ ويقُومَ ذاهِبًا إلى حُجْرَةٍ أعَدَّتْها زَوْجَةُ عبدِ اللَّه مع صَديقاتِها وقَرِيباتِها لِذَلِكَ: مائِدَة كَبيرَة وحَوْلَها العَديدُ مِن المقَاعِدِ، ويقومُ شَبابُ الأسْرَة بِنَقْلِ صَوانِى الأكْلِ مِن المَطْبَخِ إلى



هذهِ الحُجْرَةِ.

راعى عَبْدُ اللّه فى اخْتِيارِ المدْعُوِّينَ لِتناوُلِ الطَّعام؛ أنْ تكُون كلُّ مجْمُوعةٍ مُتجانِسةً، وأنْ تكون بيْنَ أفْرادِها علاقةٌ أو قرابةٌ؛ حتَّى لا يخْجل بعْضُهُمْ مِنْ بعْض، وتكُون الصُّحْبةُ طيِّبةً، وعِنْدما ينْتهُون مِنْ تناوُل الطَّعام؛ يقُودُهُمْ شبابُ العائِلةِ إلى مكانِ غسْلِ الأيْدى. ويمُدُّون الفُوط لهم لِتجْفِيفِ أيْدِيهم. ويعُودُون ثانيةً إلى أماكِنِهِمْ فى السُّرادِقِ المعدِّ لِذلِك، وبيْنما يُقدِّمُ شبابُ العائِلةِ الشاىَ لِمن انْتهى مِنْ تناوُل الطَّعام؛ يكون عبْدُ اللّه قد اخْتار مجْمُوعةً أخْرى لِتتناوَلَ الطَّعامَ فى الحُجْرةِ.

لكِنَّ مُشْكِلةً حدَثتْ لم يحْسبْ عبْدُ اللّه لها حِساباً، وهى أنَّ كمِّيَّاتِ اللحْم الكبيرة جدًّا التى اشْتراها – وظنَّ أنَّها ستكْفى، وسيتبقَّى مِنْها – نفِدتْ فجْأةً. صاح عبْدُ اللّه بصوْتٍ مُرْتفِعٍ مِنْ شِدَّةِ المُفاجأةِ غيْر

مُهْتم لوجُود قريبات زَوْجَتِهِ وصَدِيقَاتِها:

– أيْنَ ذَهبَ اللحْمُ، لَقَد اشْتَرَيْتُ كمِّيَّةً كبيرةً جِدًّا؟!

أحَسَّتْ زَوْجَتُهُ بالضِّيقِ، فمَعْنَى هذا أنَّهُ يَشُكُّ فِيهِنَّ، وأنَّهُنَّ قدْ أخْفَيْنَ اللحْمَ أو سَرَقْنَهُ، قالتْ زَوْجَتُهُ:

– لَقَدْ دَعَوْتَ إلى الحفْلِ أصْدِقاءَكَ ومَعارِفَكَ الذين لا يَحْتَاجُونَ إلى طَعامٍ أو إحْسانٍ، ولَمْ تَدْعُ الفُقَراءَ والمُحْتاجِينَ إلى حَفْلِكَ، لِهَذا لَمْ يُبارِك اللَّهُ فى كمِّيَّاتِ اللحْمِ التى اشْتَرَيْتَهَا.

أحَسَّ عَبْدُ اللَّه بأنَّ زَوْجَتَهُ مُحِقَّةٌ فيما قالَتْ، فأسْرَعَ واشْتَرَى كمِّيَّاتِ لَحْمٍ أخْرَى، ودَعا الفُقَراء والمُحْتاجِين ليأْكُلُوا فى حَفْلِهِ.





الكَلِمَـــةُ الطَّيِّبَـــةُ

اسْتَطَعْتُ أنْ أفْتَتِحَ صَيْدَلِيَّة فى حَيِّنا، لقد دفَعَتْ أمِّى مبْلَغاً كبيراً؛ مُساهمَةً مِنْها فى افْتِتاحِها، كانتْ تقْتَطِعُ مِنْ معَاشِها القَلِيل؛ جُزْءاً كُلَّ شهْرٍ، لكى تُفاجِئنى بهذِهِ الهدِيَّة.

أعْطَيْتُ للصَّيْدَلِيَّة كُلَّ وَقْتِى واهْتِمامِى، كُنْتُ أقْضِى بها مُعْظَم الوَقْتِ، خاصَّةً أنها قَرِيبَةٌ مِنْ بَيْتى، وكانَتْ أُمِّى تزُورُنى فِيها، تجْلِسُ فى الدّاخِلِ تُتابِعُنِى وأنا أصْرِفُ الأدْوِيَةَ للزَّبائِنِ، فإنَّنى وهِىَ نَعِيشُ فى الشَّقَّة وَحْدَنا؛ بَعْدَ أنْ ماتَ والِدِى قبْلَ أنْ أكْمِلَ تعْلِيمى، فَضَحَّتْ أُمِّى بكُلِّ شَىْءٍ كَىْ أحْصُلَ على شَهادَتى.

■■■

لاحَظَتْ أُمِّى أنِّى حَزِينٌ هذِهِ الأيَّام، أفَكِّرُ طوالَ الوَقْتِ، فَسَألَتْنِى وهِىَ

جالِسةٌ فى مكانِها بالصَّيْدَليَّة:

– ماذا بكِ؟

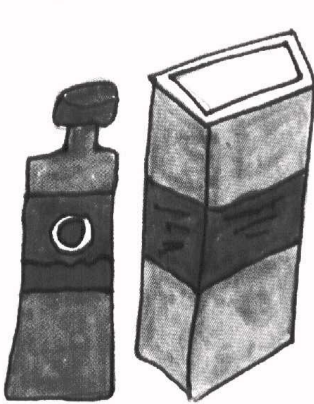
– لا شَىْء.

لكنَّها ألَحَّتْ فحكيْتُ لها عمَّا يُضايقُنِى:

– تعْرفينَ الدكْتور صبْرى عبْد العزيز؟

– إنَّهُ صاحبُ أقْدم صيْدليَّة فى الحىِّ.

– لقد ساءَهُ أنْ أفْتتح صيْدليَّة قريبةً منْهُ وأُنافِسهُ، فأخذ يُردِّدُ لكُلِّ منْ يُقابلُهُ بأنَّنى قليلُ الخبْرةِ فى تحْضيرِ الأدْوِيةِ، ولا أبيعُ إلا الأدْوِيةَ الأقلَّ فائِدةً.



تابعتْ أمِّى بلاطَ الصَّيْدليَّة الكَبير العارى للحظاتٍ، حتَّى ظننْتُها صرفت النَّظر عنْ الموْضُوع الذِى أحْكِيه لها، لكِنَّها قالتْ:

– وماذا ستَفْعلُ؟

– أُفكِّرُ فى أنْ أُقِيم دعْوى قضائِيَّة ضدَّهُ.

قالتْ فى هُدُوءٍ شديدٍ:


صيدلية الأمانة

– لا داعِىَ لِهذا وابْدَأْ بالحُسْنَى.
– لكنْ ....
– طاوِعْنى، هذا هُوَ الحَلُّ.
فِى اليَوْم التَّالى جاءَت امْرَأةٌ – مَنَ الحَىِّ – لِتَصْرِفَ الدَّواءَ، وبَيْنَما كُنْتُ أُعِدُّهُ لها، قالَتْ:
– الدكْتُور صَبْرى يَذْكُرُك بالسُّوءِ.
عُدْتُ مُمْسِكًا بعُلْبَةِ الدَّواءِ وقُلْتُ مُبْتَسِمًا:



– دكْتور صَبْرِى مِنْ أبْرَعِ الصَّيادِلَةِ فى البَلَدِ كُلِّها، وكان أملِى أنْ أكُونَ مِثْلَهُ.
نَظَرَت المَرْأةُ إلَىَّ ولَمْ تَرُد.
وعِنْدما جاءَ رَجُلٌ آخَرُ وأخْبَرَنى أنَّ الدكْتُور صَبْرى يَذْكُرنى بالسُّوءِ؛ قُلْتُ:
– لا شَكَّ أنَّ هُناكَ خَطَأً فى الأمْرِ، فَهُوَ رَجُلٌ مُهَذَّبٌ، وأنا أتَعَلَّمُ مِنْهُ.
وقلتُ لآخَر:
– لقد الْتَحَقْتُ بكُلِيَّة الصيْدَلَة مِنْ شدة إعْجابى بهِ.
وفُوجِئْتُ بالدكْتُور صَبْرى وهُو يَدْخُلُ صَيْدَلِيَّتِى

مُبْتسِمًا، شدَّ علَى يدِى قائِلاً:

– أنا آسِفٌ يا ابْنِى.

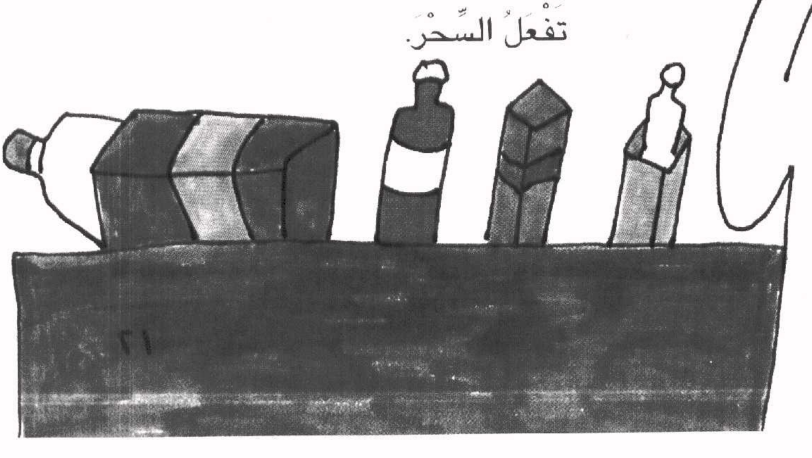
فَشَدَدْتُهُ لصَدْرِى وقبَّلْتُهُ، ودَعوْتُهُ لشُرْبِ الشاى معِى، فقالَ:

– إنَّنى مُسْتعدٌّ لأىِّ خِدْمةٍ لكَ.

وكانَ يتَّصِلُ بى تلِيفُونيًّا لِيسْألنى عنْ دواءٍ غيْرِ موْجُودٍ بصيْدليَّتِه، فإذا كانَ موْجُودًا عنْدى يُرْسِلُ طالِبَهُ لأخْذِهِ منِّى، وأوْصَى شركاتِ الأدْويةِ لكىْ تتعاونَ معِى قائلاً لهُم: إنه شابٌ مُكافِحٌ، وفى حاجةٍ للمُساعدةِ.

وفى أُمْسِياتٍ كثِيرةٍ يأْتِى مع العدِيدِ منْ أصْحابِ المحلاتِ فى المنْطقةِ لِيُكْمِلُوا السَّهْرةَ أمامَ صيْدليَّتى.

حكيْتُ لأمِّى عمَّا حدَثَ، فقالتْ: الكلِمةُ الطيِّبةُ تفْعلُ السِّحْرَ.





هَــذِهِ الْكَلِمَــةُ

اعْتَدْتُ مع صَدِيق لى أنْ نَزُور مَلْجأً للأيْتام قَرِيباً جِدًّا منْ سَكَنِنا؛ وتَقْدِيم العَوْنِ لأطْفالِهِ مِنْ وَقْتٍ لآخر.

وذاتَ يَوْم، بَيْنَما كُنَّا نَسْتَعِدُّ لاجْتِيَازِ البابِ الحَدِيدىِّ الكَبيرِ للدَّار، سَمِعْنَا طِفْلاً يَقِفُ فَوْقَ أوَّل دَرجَةٍ مَنْ دَرجَاتِ السُّلَّم العَرِيضَةِ ويَصِيح:

– بابا .. بابا.

نَظَرْنا خَلْفَنا فى دَهْشَةٍ، فَرَأَيْنا الطفْلَ يَقِفُ مُرْتَبِكاً، كانَ طَويلاً وذا وَجْهٍ شاحِبٍ.

عادَ صَدِيقى إلَيْهِ؛ وَوَقَفْتُ فى مكانى أُتابِعُ ما يَحْدُثُ باهْتِمامٍ، سَمِعْتُ الطفْلَ يَقُولُ فى خَوْفٍ:

– هَلْ أذْنَبْتُ عِنْدما قُلْتُ هَذِهِ الكَلِمَة؟



فانْحنى صَدِيقى وقبَّلَهُ قائِلاً فى حَنانٍ: لا يابنى.

قالَ: كُنْتُ أُريدُ أنْ أُجرِّبَ هَذِه الكلِمَة التى لم أقُلْهَا مِن قبْلُ.

سارَ صَدِيقى دُون أنْ يُجيبَهُ بشَيْءٍ، وظلَّ صامِتًا طوالَ الوقْتِ.

بعد عِدَّة أيَّام ذهبْتُ إلى بَيْتِ صَدِيقى لأمْرٍ مُهِم، فَوجَدْتُ هذا الطفْلَ يلْعَبُ مَعَ أطْفال صَدِيقى، فَقُلْتُ مُنْدَهِشاً:

– ألَيْسَ هذا هُوَ الطفْلَ .....

فقاطَعنِى قائِلاً: لمْ أسْتطِعْ أنْ أنامَ لَيْلَتَها، وفى الصَّباح ذَهبْتُ إلى ملْجأ الأيْتام وجِئْتُ بِهِ ليعِيشَ مع أطْفالى، لكَىْ يقُولَ لى هَذِهِ الكَلِمَةَ وقتَما يَشاءُ.





الوَاعِـــظُ

كانَ فى العَصْرِ المَمْلُوكِيِّ بمِصْرَ واعِظٌ يعِيشُ فى مَدِينَةِ الإسْكَنْدرِيَّة، يَخْطُبُ فى أحَدِ مَسَاجِدِهَا، وكانَ على معْرفَةٍ واعِيَةٍ بالدِّين، وذا لِسانٍ مُفَوَّهٍ وحُجَّةٍ قويَّةٍ، حتَّى إنَّ سامِعِيهِ بكَوْا تأثُّراً مِنْ عُمْقِ كَلِماتِهِ وحُلْوِ حدِيثِهِ.

وامْتلأَ المَسْجِدُ الذِى كانَ يَخْطُبُ فِيه عَنْ آخِرِهِ بالنَّاس، واضْطُرَّ الباقون إلى الجُلوس خارِجَهُ. وَصَلَ ذلكَ الواعظُ إلى هَذه المَكانَةِ مِن العِلْمِ والإيمان، وهو لم يَزَلْ شابًا صَغِيرًا فقَرَّبَ إليه الغَنِىَّ والفَقِيرَ، والعَبْدَ والسيِّدَ على السواءِ، الكلُّ يثِقُ بِهِ وبِقَوْلِهِ.

وتعَلَّقَ قَلْبُ «مُسْعد فَخْر الدين» بحُبِّ ذلكَ الواعِظِ الشَّاب، وصارَ مِنْ مُحِبِّيهِ ومُرِيدِيهِ، يَحْرِصُ عَلى سَماعِ وَعْظِهِ يومَ الجُمُعَةِ، ورُبَّما يُؤَجِّلُ سَفرَهُ إلى ما بعد يَوْم الجُمُعَةِ حتَّى لا تَفُوتَهُ خُطْبَةُ الواعِظِ الشاب، ولوْ أدَّى هَذا إلى ضَياعِ ثَرْوَةٍ ستأتِيه لَوْ سافَرَ.

ولقد أحبَّ الواعِظُ – هُوَ الآخَرُ – مُسْعد فَخْر الدين؛ وقرَّبَهُ إليْهِ واسْتَجابَ

لدَعْوتِهِ، فزارَهُ فى متْجرِهِ الكبيرِ فى «الميْدانِ»، وشَرِبَ قهْوتَه، واسْتجابَ – أيْضاً – لدَعْوتِهِ، وحضَرَ الحفْلَ الدينىَّ الذى يُقيمُهُ التاجرُ الكبيرُ.

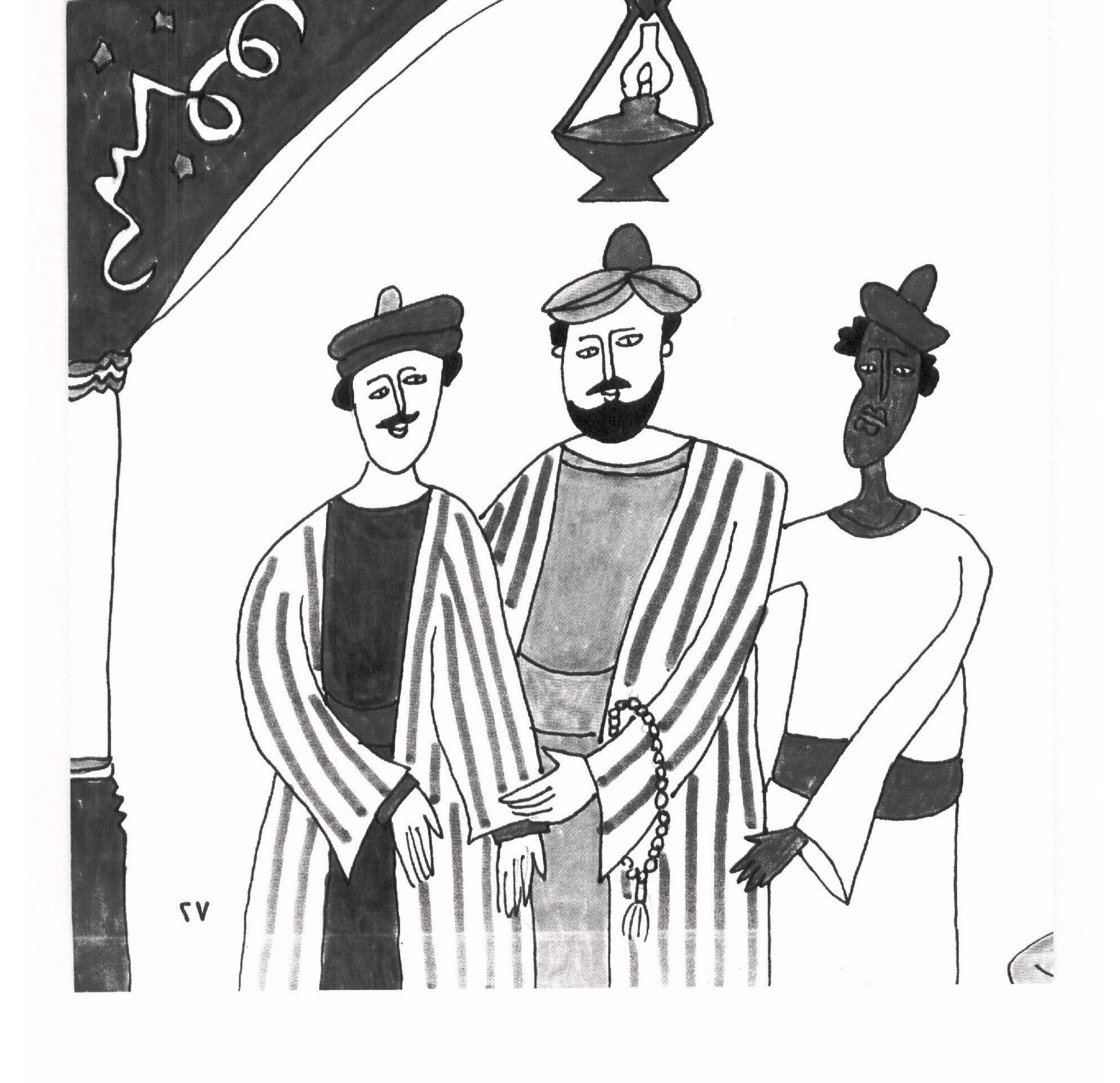
وحدَثَ أنْ جاءَ عبْدٌ منْ عبيدِ التاجرِ مُسْعد فخْر الدين إلى الواعظِ وأرادَ أنْ يُقبِّلَ يدَهُ، لكنَّ الواعظ أبْعدَ يدَهُ عنْهُ، فقالَ العبْدُ:

– سيِّدِى مِنْ مُحِبِّيكَ ومُريدِيكَ، ومِمَّنْ يثِقُ فى قوْلِكَ، وإنْ خطبْتَ فى صلاةِ الجُمُعَةِ، وتحدَّثْتَ عنْ ثوابِ عِتْقِ العبيدِ وجزائِهِ عنْدَ اللهِ، فسيُسْرِعُ سيِّدِى بعِتْقِى.

– سأفْعَلُ بإذْنِ اللهِ.

وكانَ العبْدُ يُحِبُّ أرْملَةً تسْكُنُ فى «دِمْياطَ»، وقد قابلَها فى رحْلَةٍ مِنْ رحلاتِ سيِّدِهِ مُسْعد فخْر الدين، وعرَضَ عليْها الزَّواجَ، فوافقتْ شرْطَ أنْ يكونَ حرًّا، ولولا هذا ما فكرَّ فى الحُرِّيَّةِ، فمُسْعد فخْر الدين يُعامِلُهُ بالحُسْنَى، ولا يبْخَلُ عليْهِ ولا علَى باقِى العبيدِ فى شَىْءٍ.





وجاءَ يومُ الجُمُعَةِ، فَصَعد الواعِظُ المِنْبرَ وحَمِدَ اللَّهَ على نعْمائِه، ثم تحدَّث فى أمُورٍ كثيرةٍ، إلا عتْقَ العَبيدِ. وحزن العبْدُ كثيرًا، ولمَّا انْتهت الصَّلاةُ اقْتَربَ مِنْ الواعِظِ وقال:

– إنَّكَ ياسَيِّدِى لمْ تتحدَّثْ عن فضْلِ عِتْقِ العَبيدِ.

فربَّتَ الواعِظُ على ظهْرِهِ قائِلاً: سَأفْعلُ بإذْنِ اللَّه.

وخرجَ العبْدُ يُمَنِّى نفْسَه بالحُرِّيَّة، آملاً أنْ يفْعلَ الواعِظُ هذا فى الجُمُعَةِ المُقْبلة، وخُصُوصًا أنه أرْسَلَ إلى الأرْمَلَةِ – التى يُريدُ زواجَها – وأخْبَرَها أنَّ سَيِّدَهُ سيعْتِقُهُ فى القَريبِ العاجِل. لكنْ فى الجُمُعَةِ اللاحِقَةِ لم يَتحدَّث الواعِظُ فى ذلك أيضًا، فاقْتَربَ العَبْدُ مِنْهُ لائمًا مُعاتِبًا:

– لماذا يا سَيِّدى لم تَتحدَّثْ عَنْ فضْلِ عِتْقِ العَبيدِ؟!

فربَّتَ الواعِظُ على كَتِفِه حانِيًا، وقالَ: سأفْعَلُ بإذْنِ اللَّه.

ومرَّتْ أيامُ الجُمَعِ الواحدة إثْرَ الأخْرَى، والواعظ لا يَذْكُرُ عِتْقَ العَبيدِ قط، لكنْ فــى جُمُعَــةٍ فَعَلَها، صَعدَ المِنْبَرَ وحَمِدَ اللَّه وأثْنى عليْه، ثم تَحدَّث عن فَضْلِ عِتْقِ العَبيدِ، وأفْصَحَ الشيخُ وصالَ وجالَ حتَّى بكَى المُصَلُّون تأثُّرًا، وبكَى مُسْعد فخَر الدين، وبعد ان انْتَهى مِنْ صَلاتِه، قالَ لِعَبْدِهِ الجالِسِ بجانِبِه: اذْهَبْ فأنْتَ حُرٌّ لوجْهِ اللَّهِ تعالَى.

وانْهالَ العَبْدُ – فرِحاً – علَى يدِ سَيِّدِهِ يُقبِّلُها، ثم اقْتَرَبَ مِنْ الواعِظِ وأراد

أنْ يُقبِّلَ يديْه، لكنَّ الواعظ أبْعَدهُما عَنْه، قال العَبْدُ مُعاتِبًا:

– لَوْ قُلْتَ هذا مُنْذُ أسَابيعَ كثيرةٍ، لتحَرَّرْتُ فى وقْتِها.

فقالَ الواعظُ: إنَّنى لم أنْسَ ما وعدْتُك به، وودِدْتُ أنْ أفْعلَهُ فى حينِهِ لأسْعدَكَ، لكنَّنِى لم أكُنْ أمْتَلِكُ عبْدًا لأعْتِقهُ، ولم أكُنْ أمْتَلِكُ نقُودًا كافيةً لشِراءِ عَبْدٍ لأعْتِقَهُ، لذا، ادَّخَـرْتُ المالَ حَـتَّـى اكْـتَـمَـلَ، واشْتَرَيْتُ عَبْدًا ثُمَّ اعْـتَـقْـتُـهُ، وقُـلْـتُ خُطْبَتى – بَعْدَ ذلكَ – مُطْمَئِنًّا.





التِّليفْـــرِيك

جاءَهْ صديقُهُ خَالد الذِى يَسْكُنُ معَهُ فى نفس البيْت، قال:

– سَنذْهبُ إلى «الأنْفُوشى» لِنتنزَّه، ليْتكَ تأتى معًا.

– لكنْ .... لم يُكْمِلْ، فهْوَ ليْسَ معه المبْلَغ الكافى للتَّنزُّه. ترَكَ صديقه خالد فى حُجرَةِ الضيُوفِ، وذَهبَ إلى زَوْجَةِ أبيهِ فى الحُجْرَةِ الأخْرَى، قال:

– سَأذْهبُ للتَّنَزُّهِ مع أصْدقائى ولَيْس لدىَّ نقودٌ كافِيَةٌ.

أشاحتْ بيدِها قائلةً: ليْسَ معى نقُودٌ.

عادَ إلى خالد حَزينًا: لنْ أسْتَطِيعَ الذَّهابَ، فالنقُودُ معى ليْستْ كافِيَةً.

قال خالد: لنْ تَحْتاجَ لنُقودٍ كثيرةٍ.

■■■

جلَسَت النسْوَةُ فى حَدِيقَةٍ عامَّةٍ، وذَهبَ هُوَ وباقِى الأطْفال يلْعَبُونَ خارِجَ



سِياج الحَدِيقةِ، رَأَى رَجُلاً مُسِنًّا
وقد أقامَ سُلَّمًا خَشَبيًّا عَالِيًا،
والأطْفالُ يَصْعَدُونَ إلى أعْلاهُ،
فَيَجِدُونَ مَنْ يُدْخِلُهُمْ كابِينَةً مُحْكَمَةً مُعَلَّقَةً
فى سِلْكٍ حَدِيدىٍّ قَوِىٍّ، الكابِينَةُ تَكْفِى لِطِفْلٍ
واحِدٍ، وتَتَحَرَّك إلى النَّاحِيةِ الأخْرَى.

قالَ لخالد: إنَّها تُشْبِهُ التِّليفْريك الذى يَنْقُلُ النَّاس من جبَلٍ إلى آخرَ فى البلادِ الأوروبيَّة.

عاد خالد إلى أمِّه، قالَ وهُوَ يُشِيرُ إلى الكابينَةِ المُعلَّقةِ عاليًا:

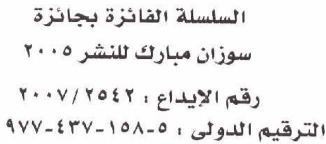
– أُرِيدُ أنْ أرْكَبَ التَّليفريك.

وقفَ هو بعيدًا يُتابِعُ خالد الذى يأْخُذُ النقود من أُمِّه. أسْرَعَ خالد إلى الرَّجُلِ المُسِنِّ، فسَمحَ لَهُ بصُعُودِ السلَّمِ المرْتَفِعِ، وتحرَّكت الكابينَةُ بهِ إلى الناحيةِ الأُخْرَى، وأسْرَعَ باقى الأطْفالِ إلى أمَّهاتِهِمْ يأْخُذُون مِنْهُنَّ قيمة صُعودِ التليفْريك، إلا هو، فأمُّهُ ماتَتْ وهو صغيرٌ، وزوْجَةُ أبيهِ رفَضتْ أن تُعْطِيَهُ نُقُودًا.

لَمحَتْهُ أمُّ خالد يَقِفُ حَزِينًا مِنْ بعيدٍ، فنادَتْهُ، وفتَحْت حقِيبةَ يدِها، وأعْطَتْهُ نُقُودًا قائلةً:

– اركَبْ مثلَ سائرِ الأطْفالِ.

فأسْرَعَ فرِحًا إلى الرَّجُلِ المُسِنِّ ليَرْتَقِى السُّلَّمَ المُرْتفِعَ، لِينْتَقِلَ بالكابينةِ المُعلَّقَةِ والمُحْكَمةِ الغلْقِ إلى النَّاحِيةِ الأُخْرَى.



السلسلة الفائزة بجائزة
سوزان مبارك للنشر ٢٠٠٥

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٥٤٢
الترقيم الدولى: ٥-١٥٨-٤٣٧-٩٧٧

شركة الأمل للطباعة والنشر